

مفاهيم الجواهر الميتافيزيقي المادي والروحي عند الحكماء السبعة عرض ونقض

Concepts of metaphysical, material and spiritual essence according to the Seven wise

أ.سامي سنوسي¹

جامعة أبو القاسم سعد الله. الجزائر²

samiphilo@hotmail.com

تاريخ الوصول 2020/04/14 القبول 2021/04/05 النشر على الخط 2021/10/30

Received 14/04/2020 Accepted 05/04/2021 Published online 30/10/2021

ملخص:

إن الباحث في العقائد الإيمانية لا يفتأ يقف على تشكلاتها الأولى في تاريخ المجتمعات الإنسانية، ولعلنا نجد أهم تلك التشكلات في تاريخ الأفكار الفلسفية، ولما شاع أن الحضارة اليونانية موطنها لها، حاولنا بدورنا تحليل نظريات المفكرين آنذاك؛ إذ قدموا فلسفات في تغليل الجوهر الميتافيزيقي، ولكن ما يلفت التأمل هو اختلافهم حول طبيعته، فثبتت منهم من يرى أن جوهر الكون مادي جسماني، ومنهم من يراه روحانيا ميتافيزيقيا، وبناء على هذا الاختلاف، استندنا إلى تحليل رؤية أشهر الحكماء آنذاك، وقد عرفوا بالحكماء السبعة، لتفضي محاولتنا في الأخير إلى عرض مفاهيم الجوهر الميتافيزيقي في حكمتهم، وتاليا نقضها بأدلة عقلية ومنطقية انتصارا منا للدين.

الكلمات المتاحية: الجوهر الميتافيزيقي، الجوهر المادي، الجوهر الروحاني، الحكماء السبعة.

Abstract:

The researcher of faith beliefs does not always stand on their first formations in the history of human societies, and perhaps we find the most important of these formations in the history of philosophical ideas, and when it became common that Greek civilization is our home to them, we in turn tried to analyze theories of thinkers of the time; they provided philosophies in the explanation of the metaphysical essence, but What draws contemplation is their disagreement about its nature, so it has been proven by some of them that the essence of the universe is physical physical, and some of them see it as spiritually metaphysically. Li display concepts in essence metaphysical wisdom and, consequently, contradicted by evidence and the mentality of a logical victory for us religion

Key words: metaphysical essence, material substance, spiritual essence, the Seven Wises.

مقدمة:

إنه كلما مرت القرون الزمنية على تراث فكري ما فإنه إما يتعرض إلى تناسٍ صارخ وتلاشٍ طامسٍ، وإما أنه يتعاضم الإخبار به من طرف الأولين للآخرين، بل وقد يعرضُ لهؤلاء المؤرخين والرؤاة أن يكابروا في تبجيل هذا التراث إلى حدٍ يظل يتجلى على راسخ الفكري، ربما من قبيل الإعجاب، ولعل الفكر الفلسفي اليوناني حاز شرف التعظيم وسلم تاليا من التسيان والتلاشي، ليس فقط في حلقات التاريخ للحضارة الغربية بل عظم شأنه والإنباء به عند مؤرخي ورؤاة حضارتنا الإسلامية، حتى وإن كان ثمة محاكاة لبعضهم وإنكار لبعضهم الآخر.

ونحن نتكلم عن الحلقات المتقدمة من الفكر الغربي اليوناني، من المفيد أن يبتدئ كلامنا عن أولئك الأوائل الذين حاولوا إرساء قواعد ركينة لهذا التراث الذي تجدد كل هذه القرون، وأثر في هذه الحضارات من بعده، وعليه سنعمد - بحول الله - إلى تحليل رؤية الحكماء المتقدمين من الحضارة الإغريقية، بوصفهم أئمة الحكمة وأساطينها الذين بعثوا الفلسفة وأرسوا لها الأركان لتدوم هذه القرون وتُنقل إلينا الأخبار عنها باسم حكمائها، واستمرار انبثاق الأتباع لحكمتهم إلى يوم الناس هذا.

وقف اختيارنا في هذا الغرض على رهط الحكماء السبعة ومقالاتهم في الجوهر الميتافيزيقي، وكانت الغاية من وراء اختيار حكمتهم، هي تحليل أهم الأسس الكبرى التي بُني عليها الفكر الغربي القديم، وتاليا نقد ونقض هذه الأسس، وكذلك للخروج عن الطريقة السائدة التي تميزت بالتأريخ السردى الوصفي للولوج إلى طريقة أكثر موضوعية هي طريقة التأريخ التقييمي أو النقدي لحكمة الغرب، وكلما تأصلت في قرونها الأولى، كلما كان التأريخ أنزه وأقرب إلى الموضوعية العلمية، وقد اجتهدنا بدورنا أن نقيم مقالات هؤلاء الحكماء بناءً على ناقلين غربيين، ومن الصعوبات المعرفية أن نصوص الحكماء السبعة عزيزة ما عدا ما نُقل عنهم من طرف المتأخرين، إلا أفلاطون فيستثنى منهم لمصنفاته الكثيرة.

وقبل طرح الإشكال وتجزئته لا يفوتنا أن نبين أن الجوهر الميتافيزيقي روحي ومادي، الروحي يتوافق مع مقولة "الميتافيزيقي"، لكن الشبهة قد تتبادر للقارئ في التنافر الحاصل بين مقولتي المادي والميتافيزيقي، لكن يسعنا أن نبين أن المادي هاهنا ليس المقصود منه ذلك المصطلح المضاد للروحي كما هو رائج، بل المراد منه - حسب الحكماء - جوهر الموجودات الأول وأصلها وهو الحاوي الأكبر حتى لو كان له تجلٍ في عالم الطبيعة - كما سيأتي ذكره -، أو إن شئت توضيحا آخر، المادي عند الحكماء السبعة كهيولى أرسطو، هي لا مُتعينة؛ وهي أصل العالم ومادته التي نظمتها المحرك الأول، لذا ترتفع الشبهة في عدم توافق المادي هنا مع مقولة الميتافيزيقي. ونلخص فنطرح الإشكال كمايلي: ما هي مفاهيم الجوهر الميتافيزيقي عند الحكماء السبعة؟ وإذا كان المنطق العقلي يفرض جوهرًا واحدًا فلماذا تعددت صورته بين المادي والروحي عند هؤلاء الحكماء؟ أليس هذا داعيا كافيا لتهافت الرواسي الكبرى للفلسفة الغربية التي ما انفك حكماءها الأوائل يؤسسون لها؟ كيف السبيل إلى نقد ونقض مقالاتهم التي كانت مقدمات ضرورية مافتئ المتأخرون من الفلاسفة يخرجون عن أصولها؟

1 - ضبط المفاهيم المفصلية والقاعدية:

ابتداءً سنختار في تحديد ضبط المفاهيم الفلسفية ذات الوضع الغربي تيارات الفلسفة الغربية، بوصفها آخر ما آلت إليه هذه الفلسفة من نتائج وقناعات مبرهن عليها، ولعل موسوعة لالاند المسماة لصاحبها وجامعها ومؤلفها لالاند الفيلسوف الفرنسي من الموسوعات المعاصرة المعتمدة في ميدان الفلسفة وضبط مفاهيمها، ولعل جهد فيلسوفها لالاند بارز في ثنايا ضخامة الموسوعة وما اشتملت عليه من مفاهيم وتعريفاتها ونسبتها لأمهايات مذهبها. كما لا يعني هذا اقتصارنا عليها؛ بل سنسعى من حين لآخر إلى الفلاسفة الوسيطيين؛ المسلمين والمسيحيين واليهود، بوصفهم الحاملين لتراث الفلسفة القديمة، ولاسيما اليونانية منها، وهذا بطبيعة الحال اتباعاً وشرحاً وإضافة، لكن قبل الشروع في الأرخنة النقدية لفلسفة الحكماء السبعة في الجوهر وتجلياته الروحية والمادية، يسعنا فيما يلي الوقوف على ضبط المفاهيم المفصلية كمنح الجواهر، والجوهر المادي، والجوهر الروحي، ومن هم الحكماء السبعة؟.

1-1 ضبط مفهوم الجوهر:

جاء في موسوعة لالاند الفلسفية تعريف وتفهم للجوهر فقيل إن: "الجوهر/*Essence*، ميتافيزيقيا في مقابل عرض كل حادث، ما يُعدّ مكوناً أساس الوجود، في مواجهة التغيرات، التي لا تطاله إلا سطحياً، أو ظرفياً، هذا الجوهر يضعه البعض في العام، ويضعه البعض الآخر في الخاص، وأصح المعاني أن الوجود الحقيقي لشيء ما إنما هو ما ندعوه جوهرًا"¹، إذًا الجوهر عند الفلاسفة - حسب لالاند - هو الوجود الحقيقي، والمقابل - منطقياً - للوجود غير الحقيقي، كالوجود العرضي، ونحن نعلم أن المناطقة قسّموا الوجود إلى الوجود المفارق، وهو الجواهر المتعالية، والوجود الحايث للواقع الحادث، وهو جوهر الأعراض الجزئية والقريبة.

لهذا فالجوهر هو أوّل المقولات العشر عند أرسطو، فيقول: "فأما الجوهر الموصوف بأنه أولي بالتحقيق والتقديم والنفصيل فهو الذي لا يُقال على موضوع ما ولا في موضوع ما، ومثال ذلك "إنساناً ما" أو "فرسٌ ما"، فإما الموصوفة بأنها جواهر ثوانٍ فهي الأنواع التي فيها توجد الجواهر الموصوفة بأنها أول"²، وهاننا نستفيد من كلام أرسطو أن الجواهر فيها الأوائل وفيها الأواخر، أمّا الأوائل فهي التي ليست موضوعاً ما ولا هي في موضوع ما، فنستنتج إذًا أنها مُفارقة، وأمّا الجواهر الأواخر أو الجواهر الثواني في اصطلاح أرسطو، فهي إمّا موضوع ما أو حالة في موضوع ما. فنستنتج حينئذ أنها غير مفارقة، بل من الأعراض، أو كما أطلق عليها الأنواع الصادرة من الجواهر الأوّل.

كما تجدر الإشارة إلى أن فائدة الجوهر الأوّل تكمن في الإيجاد والإحداث لباقي الجواهر الثواني، فوجودها يعني بالضرورة وجوده، وعدمها يعني عدمه، وطالما الأفضلية في التقدم هكذا يجوز الجوهر الأوّل عند كل الفلاسفة على الشرف والسببية في إخراج الموجودات من اللأ شكّل واللأ صورة لها نحو صورتها الحقيقية، وبدون الجوهر لا إخراج لها ولا وجود متعين في عالم الأعراض القريبة. يقول أرسطو: "فيجب إذن إن لم تكن الجواهر الأوّل، ألا يكون سبيل إلى أن يوجد شيء من تلك الآخر"³.

¹ أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريف: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، ط2، بيروت/ باريس، ص 366.

² أرسطوطاليس: النص الكامل لمنطق أرسطو، تحقيق: فريد جبر، مراجعة: جيران جيهامي ورفيق العجم، دار الفكر اللبناني، ط1، بيروت، 1999، ص 40.

³ أرسطوطاليس: المصدر نفسه: ص 41.

1 - 2 ضبط مفهوم الجوهر المادي / الجسماني:

إن الجوهر كما اتضح، خفيّ يتقدم الموجودات شرفاً وقوة، له من قوة الإيجاد للأعراض ما يجعله أصلاً لها، لذا قسمه الفلاسفة إلى جسماني وروحاني، "فالجسماني نوعان: فلكي وطبيعي، فالطبيعي نوعان: بسيط ومركب، فالبسيط أربعة أنواع؛ نار وهواء وماء وأرض، والمركب نوعان: جماد ونامي"¹. من هذا التعريف وقياساً على تراث الفلسفة اليونانية الطبيعية نستخلص تعريفاً آخر يجمع أصول الجواهر المادية والجسمانية عند الفلاسفة الطبيعيين ومنهم الحكماء السبعة، هذا التعريف سيبين لنا ماهية الأسطقسات الأربعة التي: "يتكون بعضها عن بعض، لأنها هي الجواهر الأول الطبيعية، وأن موادها واحدة في النوع ومادة كل واحد هي بعينها مادة الآخر، على طريق التعاقب، وكانت إنما تصير أسطقسات، لأجل أن كل واحد منها يتكون عن كل واحد؛ وأن سائر الأجسام المتكونة إنما تتكون عنها، وأن فيها مبادئ وقوى بها يتكون بعضها عن بعض، ولأجلها يتكون عنها سائر الأجسام المتكونة"².

لعل هذا التعريف بيّن لنا حقيقة الأسطقس الذي عدّه الحكماء الأوائل مادة الأجسام كلها، هذه الأخيرة التي تُعد أعراضاً بالقياس إلى جواهرها الأسطقسات، وإذا كان ذلك، فإن مجمل الفلسفة الطبيعية اليونانية تقوم أركانها على هذه الجواهر الأربعة الهولونية أو المادية، وتتخذ من الأعراض الجسمانية استدلالاً عليها، وعلى جوهريتها لها، فتكون بهذا العناصر البسيطة الأربعة مقدمات ضرورية ينبغي أن يفقهها ويأمعان كل دارسٍ لأصول الفلسفة اليونانية الطبيعية، بوصفها الجمل الخام للفلسفة الغربية القديمة التي زعم حكماؤها أن أصل العالم وجوهره الأول ماديّ.

1 - 3 : الجوهر الروحاني / المفارق وغير الجسماني:

الجوهر الروحي هو المقابل من حيث الماهية الجوهر المادي الجسماني، وهو مفارق لا يُدرك بالآليات الحسية القادرة على إدراك العالم المادي بجواهره المرئية، ويعود هذا المصطلح إلى استخدام الفلاسفة الحكماء اليونان الأوائل، فالجوهر الفرد (Monade) "مصطلح قديم جداً من أصل فيثاغوري، طبقه أفلاطون على الأفكار، وصار المصطلح مشهوراً بفضل ليبنتز* الذي عرّف الجوهر الفرد بأنه جوهر لطيف أي بلا أجزاء"³، فالمعروف على أفلاطون أنه قال بأن العالم الحسي بقدر ما تتكثّر فيه الموجودات وتتعدّد فإن نماذجها واحدة، وهي من أصل مُفارق في عالم مثالي لا يُدرك بالحواس الجسمانية، بل قوة إدراكه هي العقل، ولا يتسنى له ذلك إلا بالتأمل العقلي، فيرى حينئذ أن عالم الأشياء مجرد نسخ عن الأفكار المثالية، بالتالي فهي جواهرها الحقيقية، ومن طبيعتها أنها فردة، لا تتعدد ولا تتكثّر، لذلك أطلق عليها أفلاطون المثل أو النماذج الأزلية والأبدية، هذه إشارة إلى أن الجوهر الفرد الروحاني عند الحكماء الإلهيين هو الأصل، وليس الجوهر المادي الفاضل عنه.

¹ جيرار جيهامي: موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 1998، ص 213.

² جيرار جيهامي: المرجع نفسه، ص 51.

* ليبنتز / Leibniz: فيلسوف ورياضي ألماني حديث، من مؤلفاته، "في إصلاح الفلسفة الأولى وفي معنى الجوهر" (انظر معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص 581)

³ أندري لالاند: المرجع السابق: ص 828.

وبالجمله "الجواهر الروحانية فاعلة ولا تدرك بطريق الحواس، ولا تعرف إلا بطريق العقل، وبما يصدر عنها من الأفعال العقلية"¹ وكذلك يمكن القول "أن ماهية الجوهر جوهرًا بمعنى أنه الموجود في الأعيان لا في موضوع، وهذه الصفة موجودة لماهية الجواهر المعقولة. إن الجوهر الذي هو محل المعقولات ليس بجسم، على أنه قوة فيه، أو صورة له بوجه"².

هذه إحدًا توضيحات بسيطة لمعاني الجوهر المادي والروحي، وعموماً "الجوهر ينقسم إلى بسيط روحاني كالعقول والنفوس المجردة، وبسيط جسماني كالعناصر، وهو اصطلاح إغريقي يخص طبيعة المسيح وما إذا كان جوهره واحداً؛ أي أنه من طبيعة واحدة إنسية، أو أنه من جوهرين، أي طبيعتين متخالفتين؛ إنسية وإلهية"³، والمميز الأكبر بينهما هو اختصاص الجوهر المادي بالجسمانيات والعوالم المحسوسة، واختصاص الجوهر الروحي بالمعقولات والروحانيات المفارقة، المضادة بطبيعتها لكل ما هو جسماني، لذا اخترنا نحن - في تقديرنا - مصطلحي المادي والروحي للوقوف على الطبيعة الميتافيزيقية للجوهرين، هذا من جهة، وعلى الغموض الفلسفي الذي أسس عليه الحكماء اليونان الأوائل فلسفتهم في تصور هندسة عامة للكون أو الوجود من جهة أخرى. إننا سنحاول أن نورد قراءة نقدية لنظريات هؤلاء وهم يبنون أصول نظرياتهم الفلسفية مبينين - بحول الله - نقائص نظرياتهم ومفارقات وقعوا فيها جعلت أول من يخرج عن أصول تفكيرهم أولئك الحكماء الذين خلفوهم من أهل اليونان وغير اليونان.

1 - 4 الحكماء السبعة:

هذا المصطلح ينقسم إلى مقولتين هما مقولة "الحكماء" ومقولة "السبعة"، والقارئ لهذا المصطلح في تاريخ الفلسفة العام وتاريخ الفلسفة القديمة، يتساءل عنه كمنحو أن يقول: لماذا الحكماء سبعة؟ أو يقول: هل الحكماء سبعة فقط؟ وما عداهم ليسوا بحكماء؟، فقد يتبادر إلى عقله أمران أو عِلَّتَان، فإما أن يكون الحكماء سبعة بالنظر إلى إمامتهم في صناعة الحكمة أو الفلسفة وتضلعتهم في مباحثها الكبرى، ولكن يبقى السؤال عالقا بشأن السبعة؛ إذ هم في البراعة والتضلع في الحكمة يفوق رهطهم العدد سبعة، وهو الأمر ذاته الذي يستدعي العلة الثانية، وهي أن السبعة عدد مقدس عند كل الحكماء، ولا سيما هؤلاء الذين سنتطرق إليهم، وفضلا عن ذلك أغلبهم برعوا في صناعة الرياضيات أو علم الكم المتصل والمنفصل، فتكون مقولة السبعة صفة لمقولة الحكماء، ليس من قبيل العَدِّ وإنما من قبيل التقديس والرّفعة والمنزلة، إذ السبعة كعدد لا يلحق إلا للمقدس الكامل في الإبداع والخلق، ونحن نعلم هذا في الأديان السماوية، ولنا في القرآن الكثير من الآيات تصف الصفة السباعية للموجودات الشريفة المخلوقة من طرف الله - تعالى - كالسّموات السبع، والسبع المثاني، وهلم جرا؛ فبان إذاً أن الحكماء السبعة هم "قدماء أساطين الحكمة"⁴ فهم آباؤها الكبار وأئمتها الأول، الذين منهم تُستأنف حركة الفلسفة وما جرى فيها من مباحث وما أُبدع فيها من نظريات.

¹ جبرار جيهامي: المرجع السابق: ص 214.

² المرجع نفسه: ص 219.

³ عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، ط3، القاهرة، 2000، ص 267.

⁴ شمس الدين الشهرزوري: تاريخ الحكماء قبل الإسلام وبعده، تحقيق: عبد الكريم أبو شويرب، دار بيبليون، باريس، 2007، ص 42.

ولكن نحن سنحاول الوقوف على أبرز هؤلاء، وكان قد وقف عليهم أكبر مؤرخي الحكمة والحكماء، ولعل أبرزهم قد اتفق حولهم المؤرخون، "فالحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة من الملطية*، وساميا*، وأثينية، وهي بلادهم، وأما أسماؤهم؛ فهي: تاليس الملطي، وأنكساغوراس، وأنكسمانس، وأنباذوقليس، وفيثاغورس، وسقراط وأفلاطون"¹.

وبالجملة الحكماء السبعة، هم أولئك النفر الذين قدّموا مغامرات عقلية في سبيل رسم خارطة للناس، لئيبينوا لهم الكيفية التي حدث فيها الكون وعن ماذا حدث؟ وإلى أين سيؤول؟ وبذا قدّم كل أحد منهم على حدة نظرية خصّصها لدراسة جوهر الموجودات وانقسمت إذاك مساعيهم إلى طريقتين: طريق جَوْهَرِ الموجودات بالجواهر المادي الذي منها تصدر وإليه تفتقر وتصير، وطريق آخر جَوْهَرِها بالجواهر الروحي المضاد للمادي لمُفَارَقَتِهِ عالم المواد الجسمانية وتميُّزِهِ بطبيعة عقلانية سماوية مفارقة؛ فكان أشرف الجواهر وبه تكون الموجودات، وإليه تفتقر وإليه تصير، وفيما يلي سنعمد - بعون الله - إلى ذكر نظرياتهم في مفاهيم الجواهر ونقض مقالاتهم العارضة في المفارقات العقلية والمنطقية.

2 - تحليل ونقد ونقض مقالات الحكماء السبعة في الجواهر:

2 - 1 مقالات طاليس / Thales. الملطي:

إن طاليس الملطي اليوناني يُعد من هؤلاء الذين تُدرّسهم لطلابنا في المراحل الإعدادية بأنه عالم رياضي وفلكي، لكن في نهاية المراحل الإعدادية نعود إليه مرة أخرى ونقول عنه أنه أبو الفلسفة على الإطلاق، كونه أوّل من طرح سؤالاً فلسفياً عن أصل الوجود، فحاز إذاك على شرف إمامية الفلسفة نشأة وظهوراً في اليونان القديمة، فهل صح ما ساد اعتقاده؟ أي هل يستحق طاليس هذا التعظيم والتبجيل أم أن التحليل والنقد غابا في التأريخ له، فتأسطر الرّجل وعظمت صورته في عقول لاحقيه من المهتمين بالفلسفة والكونيات كما كان هو نفسه؟.

في الحقيقة طاليس من الفلاسفة القائلين بالجواهر الميتافيزيقي المادي، وهو "أحد الحكماء السبعة في اليونان، كل منهم اشتهر بحكمة قالها، وتجري الرواية بأن حكمته التي قالها هي: "أفضل الأشياء هو الماء"، وبناء على ما يقوله أرسطو فإن طاليس قد ذهب إلى أن الماء هو العنصر الأصلي الذي تتألف منه سائر العناصر جميعاً، ويعتقد أن الأرض مرتكزة على الماء"².

وبالنظر إلى ما أورده برتراند راسل هنا، نستفيد أن طاليس أشار إلى أن الماء هو العنصر الوحيد والجوهر الميتافيزيقي الأصلي الذي تصدر منه سائر الموجودات، لكن ما يُعاب على هذا الزعم هو أن مقالته هذه مجرد طرح أسطوري رغم ما يعتريه من شبهة علمية، والاعتراض بيّن من جهة ما ذكر أرسطو عنه بحيث قال عنه أنه كان يعتقد، والاعتقاد - كما هو معلوم - لا يفيد اليقين المطلق، وفي هذا الصدد "تتألف فلسفته - إذا جاز لنا أن نسميها فلسفة بقدر ما نعرف - من قضيتين: أولاً: أن أصل الأشياء جميعاً هو الماء، وكل شيء يعود إلى الماء، وثانياً: أن الأرض قرص مسطح مستو يطفو على الماء، والقضية الأولى التي

* الملطية: وتسمى عند الغربيين ميليتس، احتلها الفرس، وخرّبها المقدونيون، وتقع الآن في البلاد التركية. (انظر الملل والنحل للشهرستاني، ص 337).

* ساميا: بلدة يونانية قديمة تسمى حالياً ساموس، وهي جزيرة يونانية شمالي بحر إيجه، قرب الساحل التركي. (انظر الملل والنحل ص 337)

¹ الشهرستاني أبو الفتح: الملل والنحل، ضبط وتعليق: كسرى صالح العلي، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، بيروت، ص 337.

² برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الفلسفة القديمة، ترجمة: زكي نجيب محمود، مراجعة: أحمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010. ص 63.

هي القضية الرئيسية تعني أن الماء هو النوع الأول الواحد للوجود، وأن كل شيء آخر في الكون ليس إلا مجرد تغير للماء، ولا بد أن ينشأ سؤالان على نحو طبيعي، لماذا اختار طاليس الماء مبدأً أولاً؟، وبأي عملية يمكن للماء - في رأيه - أن يتغير إلى الأشياء الأخرى؟ كيف تشكل الكون ماءً؟ ونحن لا نستطيع أن نجيب عن كلا السؤالين على وجه اليقين.¹

إذًا، لقد اكتسح الغموض فلسفة طاليس الذي عُددَ أبًا للفلسفة القديمة، فمن جهة، الجوهر المائي الذي اعتقده يبقى مجرد فرض فلسفي غير مبرهن بدلائل كافية، وهو الأمر الذي جعل مؤرخيه يطرحون الأسئلة باسمه دون ذكر حلول أو حتى مقاربات لها، هذا ما جعل طاليس الملطي سائلًا أكثر منه منظراً حكيمًا في حكمته، وماؤه ماءً فلسفيًا ليس أكثر، "أما كيف ظهر الكون - في رأي طاليس - من الماء فهي مسألة أكثر مدعاة للشك. وأغلب الظن أنه لم يطرح على نفسه هذا التساؤل، ولم يدل بأي تفسير، وعلى أية حال لم يعرف شيء بهذا الصدد. لماذا يجب أن يقال أن الفلسفة بدأت هنا بصفة خاصة؟، إن دلالة طاليس ليست في أن لمائه الفلسفي أي قيمة في ذاته بل في أنه كان أول محاولة مسجلة لشرح الكون على مبادئ طبيعية وعلمية دون عون من الأساطير والآلهة المصطبغة بصفة إنسانية"²

لقد رأينا بعد هذا الإيراد أن طاليس من حكماء الجوهر الميتافيزيقي المادي، وهذا الجوهر هو الماء، الذي به تكونت كل الموجودات وإليه تصير، وحتى الأرض فهي قرص يسبح فوق الماء في تصور طاليس، وعليه يكون الطاليسي منشأ الفلسفة المادية الطبيعية في الفلسفة القديمة، والذي عقبته مزاعم أخرى تدور تارة في التأصيل بالجواهر المادية، وتارة أخرى بالجواهر الروحية. وبالجملة؛ هذا ما ذكر عنه الغريون، أما عن المسلمين فلا نختار على الشهرستاني في قوله: "الماء قابل لكل صورة، فذكر أن من جمود الماء تكونت الأرض، ومن انحلاله تكون الهواء، ومن صفوة الهواء تكونت النار، ومن الدخان والأبخرة تكونت السماء، ومن الاشتعال الحاصل من الأثير تكونت الكواكب، فدارت حول المركز دوران المسبب على سببه بالشوق الحاصل فيها وإليه. قال: والماء ذكر والأرض أنثى وهما يكونان سفلا، والنار والهواء أنثى وهما يكونان"³.

إن ما نحلله ونقرؤه في إيراد الشهرستاني هو أنه بيّن طاليس فيلسوفًا متبنيًا التأصيل المادي للكون، وذلك واضح في شرحه لاستحالات الماء وتكونه من شكل إلى آخر، فتارة يتجمد فيكون أرضًا وتارة، ينحل فيستحيل هواءً، وتارة ثلاثة نارًا وهكذا، لكن الجوهر الميتافيزيقي أو الفلسفي الأوحده هو دائما الماء، الذي هو مبدأ الأشياء ومصيرها الغائي. وإلى هنا نستنتج أن طاليس يتصدر الحكماء السبعة في القول بالجواهر الميتافيزيقي المادي، لكن زعمه هذا مجرد طرح أسطوري لا يرقى إلى كونه نظرية علمية واضحة المعالم. لذا قال بشأنه راسل: "ونحن لا نعلم عن طاليس إلا علما أضال من يُعينا على تكوين صورة لفلسفته ترضينا؛ غير أننا نعلم عن خلفائه في ملطيا أكثر جدا مما نعرف عنه (...). نعم إن ما قرره من علم ومن فلسفة كان ساذجاً"⁴. فهذه مجمل المخطات التحليلية والنقدية لحكمة الحكيم الأول من الحكماء السبعة، طاليس الملطي.

¹ وولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية: ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 2005، ص 26.

² وولتر ستيس: المصدر نفسه، ص 26.

³ الشهرستاني أبو الفتح: المصدر السابق، ص 339.

⁴ برتراند رسل: المصدر السابق، ص 62..63.

2 – 2 أنكسمانس/Anaximanes:

يعد أنكسمانس ثاني الحكماء السبعة وأحد فلاسفة مدرسة ملطية أو أيونيا، بعد طاليس وأنكسماندريس، ومجمل قوله في الجوهر الميتافيزيقي أن "العنصر الرئيسي هو الهواء، فالريح هواء، والنار هواء، مخلخل وإذا ما تكثف الهواء، انقلب بادئ الأمر ماء، ثم إذا مضيت في تكثفه انقلب ترابا، وبعدئذ يكون صخورا، ولهذه النظرية حسنة هي أنها تجعل الفوارق كلها بين العناصر المختلفة، اختلافا في الكمية يعتمد كل الاعتماد على درجة التكثف"¹

إنه وبكل موضوعية علمية؛ القارئ لحكمة الحكماء السبعة مثل ما قيل عن أنكسمانس يعرف أن هذه الفلسفة قريبة جدا من النصوص الأسطورية على شاكلة ملحمة كلكامش، لأن اعتقاده الهواء جوهر ميتافيزيقي، هو في الحقيقة نوع من الاختلاف مع نظيره طاليس وأنكسماندريس لا أكثر ولا أقل، وكأن أحدهم قال باللون الأسود والآخر قال بالأبيض حتى لا يكرر ما قاله نظيره فقط، ودليل ذلك أن طاليس وأنكسمانس كلاهما قال بالجوهر من ملاحظة الطبيعة، أي فسروا الوجود الكوني بعنصر طبيعي، لكن من منظور ميتافيزيقي، والاعتراض على زعم أنكسمانس يبدأ من نقطة مركزية، وهي غياب التعليل السببي المقنع لتأصيل كل الموجودات بالهواء، فما عاد ثمة عنده تبرير فلسفي كامل أو على الأقل طبيعي علمي يستند إلى التجربة.

وفيما يلي نص نقدي يعترض على حكمة أنكسمانس بأسئلة مخلخله لحكمته في جوهر الهواء، "لقد حدد أنكسمانس هذا على أنه عمليتا التخلخل والتكثيف. فإذا آمنت - كما فعل الفيزيائيون الأول - أن كل نوع مختلف من المادة هو نوع أقصى للمادة فإن مشكلة اختلاف الصفات الخاصة بالعناصر الموجودة تظهر: فمثلا إذا كانت هذه الورقة تتكون حقا من الهواء فكيف نحسب لونها وصلابتها ونسيجها إلخ؟ إما أن هذه الصفات يجب أن تكون في الهواء الأصلي، أو لا يجب أن تكون، فإذا كانت الصفات توجد فيه إذاً فإن الهواء لن يكون مادة واحدة متجانسة حقا، بل يجب أن يكون ببساطة خليطا من أنواع المادة، وإذا لم تكن الصفات موجودة في الهواء فكيف تنشأ هذه الخواص؟ كيف يمكن لهذا الهواء الذي ليس فيه صفات الأشياء التي نراها أن يبعثها؟"²

فَقَهْنَا إِذَا الْإِشْكَالَاتِ الْفَلْسَفِيَّةِ وَالْمَفَارِقَاتِ الْمُنْطَقِيَّةِ الَّتِي قَدْ يَطْرَحُهَا الْقَارِئُ لِحِكْمَةِ أَنْكْسِمَانَسِ، وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ لَيْسَتْ فِلْسَفَتَهُ بِنَأْيٍ عَنِ التَّحْلِيلِ وَالنَّقْدِ وَالنَّقْضِ، فَقَدْ يَسْأَلُ سَائِلٌ سَوَآلًا مَفَادَهُ: إِذَا كَانَ أَنْكْسِمَانَسُ قَدْ وَضَعَ الْهَوَاءَ أَوَّلَ عُنْصُرٍ مَيْتَافِيزِيْقِي تَصْدُرُ مِنْهُ الْمَوْجُودَاتِ وَإِلَيْهِ تَصْيِيرُ مَا أَحْوجْنَا أَنْ نَطْرَحَ سَوَآلًا آخَرَ أَهْمُ وَهُوَ: مَا أَصْلُ هَذَا الْهَوَاءِ؟، هَلْ يَتَقَدَّمُهُ هَوَاءٌ آخَرٌ أَمْ مَاذَا؟

2 – 3 فيثاغورس /Pythagore:

¹ برتراند رسل: المصدر نفسه، ص 66.

² وولتر ستيس: المصدر السابق، ص 30

فيثاغورس هو من أبناء بلدة ساموس وهي مدينة قريبة العهد ببلدة ملطية، وإليه يُنسب مصطلح "فيلاسوفيا" أو "مُحِبُّ الحكمة" فكان أول من أطلق مصطلح الفيلسوف مؤصلاً بالحكمة النظرية والعملية¹، ولد فيثاغورس حوالي 570 ق.م، و570 ق.م، ويعرف بالنحلة الفيثاغورية أو المدرسة الفيثاغورية أكثر مما يعرف مستقلاً، أي إن الحكيم فيثاغورس أكثر ما يعرف بالحركة الدينية والنحلة الأورفية التي اشتهرت وقتئذ، والتي من مبادئها الكبرى الإيمان بعقيدة تناسخ الأرواح، وعجلة الأشياء وضرورة التحرر²، والتحلي بأسمى الأخلاق الصوفية، هذا وكذلك يجوز فيثاغورس على شرف إمامية التوفيق بين ثلاث صناعات تبدو متناقضة في الظاهر هي الرياضيات والتصوف والفلسفة، "فالرياضة بمعنى التذليل القياسي القاطع تبدأ بفيتاغورس، وهي عنده ترتبط ارتباطاً وثيقاً بصورة عجيبة من التصوف، ولم يزل تأثير الرياضة في الفلسفة الذي يعزى إليه إلى حد ما، لم يزل منذ عهده حتى اليوم متصفاً بالعمق وبعدم التوفيق في آن معا"³. هذه عبارات موجزة عن الصورة الدينية والأخلاقية التي امتاز بها الحكيم فيثاغورس، لذا ذاع صيته ربما حتى أكثر من طاليس، وعُرف عند المتأخرين أكثر من غيره في تلك الفترة الغامضة تاريخياً. لكن الأهم هو نظريته في الجوهر الميتافيزيقي، ما قوله فيه؟ وكيف تصور نشأة الكون؟ هل أعاده إلى الواحدية المادية أم الواحدية الروحية أم أعاده إلى التعدد والتكثُر؟

كان فيثاغورس يعتقد أن الكون كله تناغم موسيقي وكل شيء فيه يعود إلى العدد الذي هو الجوهر الميتافيزيقي الأوحده، يقول الشهرستاني: "مبدأ كل الموجودات هو العدد (...). فأول العدد هو الواحد، وله اختلاف رأي في أنه هل يدخل في العدد أم لا كما سبق، وميله الأكثر إلى أنه لا يدخل في العدد، فيبتدئ العدد من اثنين"⁴

لاحظنا إذًا أن الشهرستاني لم يفصل في شأن الواحد، هل حقيقته من الأعداد أم أنه ينفصل عنها؟ وصرح صاحب الملل والنحل أن "لفيثاغورس رأياً في العدد والمعدود قد خالف فيه جميع الحكماء قبله، وخالفه فيه من بعده، وهو أنه جرد العدد عن المعدود، تجريد الصورة عن المادة، وتصوره موجوداً محققاً وجرد الصورة، وتحققها"⁵.

والاعتراض بين من جهة الشبهة الواقعة في ضرورة التفريق بين الواحد والعدد ككل، ليس من جهة تجريد الأعداد - بصفاتها جواهر ميتافيزيقية - عن المعدودات، وإنما من جهة غموض العلاقة بين الجوهر الميتافيزيقي الأول والأعداد التالية من بعده؟ لذا نجد "في التطبيق التفصيلي لهذا المبدأ - جوهر العدد - على عالم الأشياء مزيجاً من التخيلات الشاذة، والمبالغات، أولاً: تنشأ كل الأعداد من الوحدة، وهي العدد الأول، وكل عدد آخر هو بكل بساطة وحدات كثيرة، (...) وقد وُحِدَ الفيثاغوريون بين الفردي والمحدود و بين الزوجي واللامحدود، وكيفية التوحيد هذه تبدو مسألة مليئة بالشكوك"⁶.

¹ عزت قرني: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، طبع جامعة الكويت، 1993، ص 33.

² وولتر ستيس: المصدر السابق، ص 32.

³ برتراند رسل: المصدر السابق، ص 69.

⁴ الشهرستاني أبو الفتح: المصدر السابق، ص 350.

⁵ المصدر نفسه: ص 349.

⁶ وولتر ستيس: المصدر السابق، ص 35.

وبالجملة اتضح أن جوهر العدد في نظرية فيثاغورس غامض ما عدا كونه يترجم المعدود فقط، ولا يمت بالجوهر الميتافيزيقي الأول والمبدع بصورة بيّنة ومنطقية، خاصة والإشكال لم يزل عالقا بشأن الواحد الميتافيزيقي، والواحد العددي الفردي الذي يتصدر التعداد إلى ما لانهاية له في الإحصاء. وفي كلمة جامعة؛ إن الجوهر الميتافيزيقي الذي آمن به فيثاغورس لم يميّزه عن الطبيعة تمييزاً مُفارقاً كتمييز الروح عن الجسد، بل ميزه فقط كتمييز القرص عن الدائرة، أو ما شابه هذا، وكأني به لم ينفك جوهر العدد عن كونه مجرد تعبير رياضي متطور ونحن نعلم عن عقلانية فيثاغورس الرياضية، فما يُستفاد من حكمته في الجوهر أنه فاق نظريته طاليس وأنكسمانس بأن جردّ الجوهر عن الطبيعة الحسية كجوهر الماء والهواء، إذ العدد غير المعدود، لكنه لم يصح بتعاليه ميتافيزيقياً كما نَزّهنا - نحن في إيماننا - الله - تعالى - عن الكون، فليس كمثله شيء في الموجودات على الإطلاق.

2 - 4 أنباذوقليس / Empedocles:

هو الحكيم الرابع من رهط الحكماء السبعة وقد يجوز لنا أن نكفي عليه بحكيم الأسطقس، لأنه عُرف بتأصيل الموجودات بالأسطقسات الأربعة؛ "وجعل من التراب والهواء والنار والماء العناصر الأربعة (ولو أنه لم يكن هو الذي استخدم كلمة عنصر)، وكل عنصر من هذه العناصر الأربعة قديم، لكن العناصر يمكن أن تمتزج بنسب مختلفة، فينتج عن امتزاجها المواد المركبة المتغيرة، التي نصادفها في العالم، والحب هو الذي هو الذي يصل هذه العناصر، والبغضاء هي التي تفصلها؛ وكان الحب والبغضاء - في رأي أنباذوقليس - عنصرين أوليين يتساويان منزلة مع التراب والهواء والنار والماء"¹.

ييسر من التأمل نستفيد أن في الوقت الذي أعلم فيه طاليس بجوهر واحد هو الماء، وما الموجودات إلا تحولات له، وأعلم أنكسمانس بجوهر الهواء وتحولاته، وتاليا جوهر الواحديّة العدديّة مع فيثاغورس، قلب أنباذوقليس الواحديّة الماديّة والعدديّة إلى كثرة ماديّة، بأن جمع العناصر الأربعة أو الأسطقسات، وزعم أنّها لا تنفك عن التفاعل فيما بينها، وليست كما زعم طاليس يتحول الماء ويستحيل إلى جماد وهواء، أو كما زعم أنكسمانس في تحول الهواء. أنباذوقليس بحكمته هذه يُعدّ أبا للفلسفة الماديّة بامتياز لأن من بعده اتسعت الفلسفة الذرية القائلة بالجوهر المادي الواحد للموجودات، لأنه بدون شك يرغب أن يضع نفسه في صلة مباشرة مع وحدة المادة عند الأيونيين وهراقليطس وغيره من فلاسفة الواحديّة الماديّة².

إدّاء، نستخلص أن الحكيم أنباذوقليس يؤمن بجوهر ميتافيزيقي مادي، ذي صور أربعة، منفصلة تماماً عن بعضها، وفي الآن نفسه تتفاعل بفعل الحب والكراهية - كما زعم - هذه الاعتقادات في الحقيقة تفضي به إلى الوقوع في انزلاقات ميتافيزيقية ومنطقية تماماً كما وقع نظراؤه من قبله، فيمكن القول والاعتراض بأسئلة إخراجية من زاويتين:

النقض الأول - ابتداء عند تسليمنا جدلاً - مع الحكيم أنباذوقليس - أن العناصر أربعة، وهي قديمة ومنفصلة عن بعضها بحسب نوع مادتها الهولوية القديمة، فإن السؤال والاعتراض المنطقي والميتافيزيقي ينشأ عن أول هذه العناصر ما هو؟ هل هو الماء؟ أم الهواء؟ أم هو النار؟ أم التراب؟ لاشك أن أحدها يتقدم الباقي منها، وفي حال القول بتقدم إحداها سينتفي حينئذ اعتقاد قدمها كلها،

¹ برتراند رسل: المصدر السابق، ص 109..110.

² علي سامي النشار وآخرون: ديمقريطس فيلسوف الذرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، الاسكندرية، ص 150.

وتبقى إمكانية القدم لعنصر واحد مادي ميتافيزيقي، على أقل التقديرات كماء طاليس أو هواء أنكسمانس، أما أنبازوقليس فخطبه أكبر حين زعم أن العناصر أربعة، وتاليا هي كلها قديمة وبسيطة، لا متقدم فيها ولا متأخر.

- النقض الثاني: عند الاعتقاد بقدّم العناصر الأربعة كجواهر مادية ميتافيزيقيّة لا تنفك الموجودات إلا أن تصدر عنها، يتجلى بوضوح الاحتكام إلى القول كذلك بقدّم العالم كله، لأنّ حكمة أنبازوقليس تلزمه بحكمة فيزيائية مادية محضة مفادها: "أنّ المادة ليست لها بداية ولا نهاية وأنها غير مخلوقة ولا يمكن إفنائها، وهذا هو المبدأ الأول عند أنبازوقليس، لقد آمن بأنه لا توجد صيرورة مطلقة وخلق كامل وتدمير كامل للأشياء، وآمن مع هذا بأنّ الأشياء تظهر وتفتنى على نحو ما"¹

وبالجملّة، وبعد هذا التوضيح، يمكن القول أنّ أنبازوقليس هو الحكيم الجامع لحكماء الجوهر الميتافيزيقي المادي بعد طاليس ومدرسته الملطية، وهيراقليطس القائل بجوهر النار والتغير؛ "فكل شيء ينساب ولا شيء يسكن، كل شيء يتغير، ولا شيء يدوم على حال"²، وقد جمع أنبازوقليس جواهرهم الواحديّة المادية ليجعلها أربعة، ويتم بذلك العناصر الطبيعيّة، ثمّ أنه إليه تعود فكرة قدّم العالم وقدّم كل الجواهر التي ظلت السّمة البارزة في الفلسفة اليونانية كلها، على استثناءات قليلة كأفلاطون وجالينوس بسبب فلسفتهم الإلهية - كما قال عنهما أبو حامد الغزالي: "وحكي عن أفلاطون أنه قال: العالم مُكون ومحدث، وذهب جالينوس في آخر عمره في الكتاب الذي سماه "ما يعتقد جالينوس رأياً" إلى التوقف في هذه المسألة"، وأنه لا يدري العالم قديم أو محدث؟"³، فما نستفيد هاهنا هو فكرة قدّم العالم بناءً على قدم الجواهر الأنبازوقليّة، وهي تلك الفلسفة التي ظل علم الكلام الإسلامي يُهفتها راداً في ذلك على دعاوى الحكماء اليونانيين، ومن انتحل نحلهم من حكماء الإسلام. وفي عبارة جامعة يُعد أنبازوقليس إماماً للمادية في الفلسفة وناحياً لفكرة قدم العالم في عقول الحكماء من بعده ولاسيما أرسطوطاليس؛ أكبر فلاسفة اليونان تصنيفاً في الفلسفة وقولاً للحكمة وتبويها لمباحثها.

2 - 5 أنكساغوراس / Anaxagore:

يضاف إلى الحكماء الأربعة المذكورين حكيم خامس هو أنكساغوراس، وقد كان ميلاده بآسيا الصغرى، حوالي 500 ق.م، ويذكر عنه أنه ترك موطنه كلابزمينيا، مبداً إيها بأثينا التي لم يسمع فيها عن الفلسفة والفلاسفة قبل أنكساغوراس، فكان هو الذي نقل الفلسفة إلى بلدة أثينا وأصبحت في أيامه المركز الرئيسي للفكر الفلسفي اليوناني، وفيها اتصل أنكساغوراس بكل المشهورين في عصره⁴، كما ينبغي التنبه أن أثينا هي المقر الجامع لأكبر فلاسفة اليونان على الإطلاق، كأفلاطون وسقراط وحتى أرسطو رغم ارتحاله إليها من بلده أسطاغيرا.

المهم من ذكر حكمة أنكساغوراس هو مقالاته في الجوهر الميتافيزيقي، أهو يتفق مع سابقه ومعاصره من الحكماء أم أنه عارضهم في مقالاتهم؟، ولاسيما تلك المقالات التي ذكرناها وأجمع حكماؤها على الجوهر الميتافيزيقي ذي الطبيعة المادية، لاشك

¹ وولتر ستيس: المصدر السابق، ص 62.

² علي سامي النشار ومحمد علي أبو ريان وعبد الرحيم: هيراقليطس فيلسوف التغير، دار المعارف، ط1، مصر، 1969. ص 39.

³ الغزالي أبو حامد: تحافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، ط1، دت، مصر، ص 88.

⁴ وولتر ستيس: المصدر نفسه، ص 70.

أنا سنجد إعراضاً وإبدالاً عند أنكساغوراس، وهذا عائد - بالطبع - إلى قراءته لحكمة سابقيه وفقهها بصورة سمحت له أن يفحص ويمحص ما يجب أن يقال؛ فما قوله في الجوهر يا ترى؟

لعلنا لا نجانب الصواب في تقريرنا أن أنكساغوراس يُعد من الأوائل الذين آمنوا بجوهر روحاني للعالم أو الكون، ذلك أننا نجد أنه أعرض عن تلك الجواهر المادية التي اعتقدها الحكماء من قبله، الماء والهواء والأسطقسات الأربعة وغيرها، لقد تصور أنكساغوراس قوة محرّكة ليست من طبيعة فيزيائية وغير جسمانية، هي العقل الكلّي، هذا الأخير الذي ينتج الحركة في عالم الأشياء كلها¹.

لكن النقد والنقض على جوهر العقل الكلّي لأنكساغوراس ينشأ من ناحية الغاية من وجود العقل أصلاً، ففي حكمته "العقل والمادة يوجدان جنباً لجنب منذ الأزل، إن العقل لم يخلق المادة، وكل ما هنالك أنه ينظمه (العالم)، يقول أنكساغوراس: "إن الأشياء جميعاً كانت معاً متعددة بشكل لا متناهٍ، وقليلة بشكل لا متناهٍ، ثم جاء العقل وبث فيها النظام"². هنا يبقى الإشكال عالقاً دوماً وهو زمان وجود العقل والمادة، فبكل روح علمية وبكامل النزاهة المنطقية اقترب أنكساغوراس - صراحة - من إصابة كبد الحقيقة، التي تكاد توافق الأديان السماوية في كون الخالق هو المدبر والمبدع والباري للمادة والمنظم تالياً لها وفق غائية كاملة الدقة والنظام، لكن ما وقع فيه أنكساغوراس هو مأزق تسوية المادة بالعقل الكلّي، من حيث الزمان الوجودي، قال أنهما موجودان جنباً لجنب منذ الأزل، ما يجعل العقل المنطقي والحس النقدي يطرح سؤالاً هو: أيهما يتقدم الآخر؟ المادة أم العقل الكلّي؟ هنا لم يقدم أنكساغوراس علاجاً للإشكال لأن عقله - وببساطة - لا يقبل أن يعمد العقل الكلّي الميتافيزيقي إلى تنظيم مادة هو أبداعها، فاختار أن يسوي بينهما كتساوي مجيء العقل وجسم الإنسان، العقل غير جسماني لكنه هو الناظم الكلّي للجسم، ولم يسبقه زماناً بل أتيا مع بعض بالتساوق، لم يتقدم أحدهما الآخر. وبعبارة أخرى "من المحال أن يتبدد شيء إلى لا شيء، فكأن هناك حفظاً للمادة وتسربها مع سيل من الانقسام لا ينقطع ولا ينتهي"³ وإذًا يقع النقد، ويتبلور الاعتراض على حكمة أنكساغوراس، في كلمة جامعة؛ العقل الكلّي حكمة فعّلت نشاط عقول كبيرة كعقلي أفلاطون وأرسطو، لكن يا ليت هذا العقل الأنكساغوري سبق وجوده الميتافيزيقي وجود هذه المادة الجسمانية؟

2 - 6 سقراط / Socrate وتلميذه أفلاطون / Platon:

إن سقراط هو الشخصية الغز في الفكر اليوناني القديم رغم ذبوع صيته، وكثرة الإخبار عن سيرته، فمن الطريف أنه "كان مؤمناً، ولذلك شعر بالحيرة، ولذا تبدلت حياته كما تبدلت حياة النبي "موسى" حين سمع الإله من بين الأحرار المحترقة"⁴. إننا فضلنا تلخيص مقالات سقراط وأفلاطون متلازمتين لسببين؛ أما الأول فلأن أفلاطون حكيم تتلمذ على يد

¹ وولتر ستيس: المصدر السابق، ص 72.

² المصدر نفسه: ص 74.

³ جعفر آل ياسين: فلاسفة يونانيون، العصر الأول، مطبعة الإرشاد، ط1، بغداد، 1971، ص 94.

⁴ جورج رديوش: سقراط، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة: حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2014، ص 42.

الحكيم سقراط، وكما هو معلوم قليل ما يخرج التلميذ عن أستاذه، وبذلك يتشابهان في مقالاتهما، بل ويتطابقان في الغالب، وأما السبب الثاني؛ فهو أن أفلاطون - ولولائه الكبير لأستاذه سقراط - صنف محاوراته الفلسفية على لسانه، وهنا ينشأ السؤال: هل سقراط كان يقول الحكمة وتلميذه أفلاطون مجرد كاتب فقط، أم أن سقراط لم يكتب كتابا ولا رسالة؟، فعمد إذًا أفلاطون إلى تخليد حكمته في محاوراته، وما فلسفته هو (أفلاطون) إلا تدعيم وتطوير وشروح لفلسفة أستاذه، وبالجملة يتفق أفلاطون وأستاذه في مقولة الجوهر الميتافيزيقي الروحي، لأنه "أخذ عن فيثاغورس اليوناني وشارك سقراط في الأخذ عنه ولم يشتهر ذكره بين علماء يونان إلا بعد موت سقراط"¹، فكلاهما يؤمن بإله الآلهة أو مثال المثل وهو مفارق للموجودات السفلية، واتفاقهما في قضية الجوهر هو السبب الوجيه الذي جعلنا نجتهد في إدماج حكمتهما، لذا سنسعى إلى تلخيص مقالاتهما في الجوهر وتحليلها ونقدتها ونقضها. أفلاطون هو صاحب نظرية المثل، لكن هي في الحقيقة نتيجة متطورة لنظرية سقراط في المفاهيم العقلية الجامعة للإدراكات الحسية؛ لقد آمن سقراط بأن "كل معرفة هي معرفة من خلال المفاهيم، وأن العقل هو ملكة المفاهيم"²، والمفهوم الذي يقصده سقراط هو المقولة الجامعة للخصائص المشتركة لعالم الأشياء، إنه بلغ بالتعقيل الفلسفي درجة متقدمة من المنطق، حيث تسنى له أن يُجوهر - إن صح القول - الموضوعات الحسية وغيرها من الموضوعات المعنوية في قوالب تشترك فيها، لذا فليس ثمة سماء زرقاء، بل ثمة مفهوم للأزرق ومفهوم للسماء، وما إلحاق صفة الزرقة للسماء إلا عرضا وليس جوهرًا، كون اللون الأزرق قد يضاف لغير السماء، فيضاف للنجم مثلا، وهكذا بالنسبة لسائر الأعراض المتعددة والمتكثرة.

لاشك أن المفهوم السقراطي كان دافعا قويا ومقدمة بالغة الأهمية لتطور مفهوم الجوهر الميتافيزيقي من طبيعته المادية التي شهدناها بوضوح مع الحكماء ما قبل ظهور سقراط وأفلاطون، نحو الجوهر الميتافيزيقي ذي الطبيعة الروحية، فمع أنكساغوراس إشارة غير مكتملة لروحانية الجوهر في مقولة العقل الكلي، ولكن مع سقراط في فلسفة المفهوم أضحت روحنة الجوهر متجلية، بأن جرد المفهوم شيئا فشيئا حتى نادى في الناس بالتوحيد ونهى عن عبادة الأصنام التي هي مجرد أعراض حسية، لا تستحق حتى النحت والتشكيل في أحسن صورة، "نهى الرؤساء الذين في زمانه عن عبادة الشرك وعبادة الأوثان؛ فثوروا عليه الغاغة(السفلة من الناس)، وألجأوا ملكهم إلى قتله، فحبسه الملك، ثم سقاه السم وقضيته معروفة"³.

إذًا، لقد عرفنا أن الجوهر الميتافيزيقي عند هذين الحكيمين هو المفهوم الذي تطور مع أفلاطون وأصبح يسمى بالمثل، وهنا يورد أفلاطون قولاً على لسان سقراط ومحاوره يقول: "والمثال كله كيف تتصوره حاضرا في كل واحد من الكثرة؟ هل يظل واحدا أم ماذا؟.. رد سقراط قائلاً: وماذا يمنع أن يبقى واحدا يا بارمينيدس، إنه في هذه الحالة يبقى واحدا وهو هو، ويكون حاضرا كله معاً في أشياء متكثرة ومنفصلة، وعلى هذا يكون منفصلاً عن نفسه"⁴، هذه العبارة الأفلاطونية تلخص لنا حكمة المثال ونظرية المثل التي ظلت الطابع المميز لفلسفة أفلاطون والفلسفة العقلانية من بعده.

¹ القفطي جمال الدين: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تعليق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2005، ص 20.

² وولتر ستيس: المصدر السابق، ص 99.

³ الشهرستاني: المصدر السابق، ص 356.

⁴ أفلاطون: محاوره بارمينيدس: ترجمة: حبيب الشاروني، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2002، ص 18.

لكن النقد والاعتراض يلزم سقراط وتلميذه أفلاطون، خاصة ونحن نقف أمام فلسفة تليفقية غامضة بين عالم الحس وعالم المثل، لاشك أن أفلاطون وضع العرضيات في العالم المحسوس واعتقد الجواهر التي هي المثل في العالم المعقول، أو عالم المثل والنماذج الأزلية، لكن هذا لا يسلم من النقد، لأن المنطق المُسير هاهنا هو مجرد المشاركة فقط، ولكن هذه المشاركة ستكون من أهم الصعوبات والإشكالات الفارقة، إذ كيف لنا أن نربط المحسوس بالمعقول؟ وكل منهما له طبيعة مغايرة للآخر؟ كما يتعذر عنا تفسير المشاركة ماديا بسبب اختلاف الطبيعتين، عالم الحس مادي وعالم المثل روحاني، وهي أيضا لا يقصد بها المحاكاة، وإذًا فسيظل الانفصال مطلقا وتاما بين المحسوس ومثاله، أو بين المحسوس والمعقول، رغم رسوخ الاعتقاد الأفلاطوني/ السقراطي به¹.

إن نظرية المثل الأفلاطونية بوصفها ذروة الجوهر الروحاني عند سابع الحكماء السبعة، أُسْرِعَ أحد أبرز تلاميذ أفلاطون إلى إبطالها ووصفها بالرمزية والأدب الخيالي لا أكثر، ويستوقفنا رد أرسطو على أستاذه حين وصف أفلاطون بالعمق الشعري والخيالي في نظرية المثل فقال: "وكما أن هذه الآلهة ليست سوى أناساً مؤلَّهين، فإن المثل ليست سوى أشياء الطبيعة وقد أضفى عليها الخلود" لقد قيل أن الأشياء هي نُسَخ للمثل ولكننا نجد في الواقع، أن المثل ليست سوى نسخ الأشياء².

وكأنني بأرسطو يريد أن يقول أن عالم المثل ليس يوجد في عالم ما ومفارق، بل إن وجوده في عقل أفلاطون فقط، وأما العالم الحقيقي - الذي يزعم أفلاطون بزيغه - هو العالم الحسي الطبيعي الواقعي الذي بنى عليه أرسطو فلسفته كلها، مؤدِّنا في عقول الحكماء من بعده بالاعتراض على نظرية أستاذه في جوهر المثل، والإعراض عنها مؤسساً نظرية أخرى تقوم على أساس الواقع، وبهذا قلب مزاعم أستاذه، فاتخذت مقولة الجوهر الكوني مسارا آخر لن نتحدث عنها هاهنا، لأن كلامنا كان مقررا عن الحكماء السبعة، وبالجملة هذا ما أردنا تبينه بخصوص مفاهيم الجوهر الميتافيزيقي المادي والروحي في متن الفلسفة ما قبل الأرسطية؛ بداية بطاليس الملطي ووصولاً إلى أفلاطون الأثيني.

ولنا أن نختتم بنص ابن خلدون الذي أجمل الإبطال لمزاعمهم وصرح بتهافت دعاويهم؛ يقول: "واعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه، فأما إسنادهم الموجودات كلها إلا العقل الأول واكتفاؤهم به في الترقى إلى الواجب، فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله، فالوجود أوسع نطاقاً من ذلك"³. هذا العقل الذي عهدنا تسميته بالجوهر الميتافيزيقي ذي التحلي المادي أو الروحي.

3 - خاتمة:

بعد محاولتنا المتواضعة في تحليل ونقد حكمة الحكماء السبعة في الجوهر الميتافيزيقي بداية من طاليس الملطي ونهاية بأفلاطون الأثيني، نرى أنه من الأنسب الاجتهاد في استجماع أهم النتائج وتقديمها في شكل نقاط:

¹ محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي اليوناني، الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط2، الإسكندرية، 2014، ص 189.

² وولتر ستيس: المصدر السابق، ص 172.

³ ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، ط1، القاهرة، 2004، ص 662.

- من خلال تحليل حكمة الحكماء السبعة، تبدو فلسفتهم - ورغم بساطتها - بالغة الأهمية بالنظر إلى تناميها شيئاً فشيئاً، وتأثيرها المتتالي على من لحقهم من حكماء أيضاً.

- انقسم مفهوم الجوهر إلى جوهر مادي شاهدناه مع طاليس في الماء، ومع أنكسمانس في الهواء، ومع أنبازوقليس في الأسفست الأربعة، وإلى جوهر روحي لمسناه مع أنكساغوراس في العقل الكلي، ومع سقراط وأفلاطون في المثل العليا، ويبقى جوهر العدد عند فيثاغورس متوسطا الطبيعتين المادية والروحية، تماماً كما توسطت صناعة الرياضيات العالم المعقول والعالم المحسوس.

- تبيّن لنا أن الحكماء السبعة ولما تعدد مفهوم الجوهر بينهم بتكثر صورته، بات من الموضوعية العلمية الإقرار بتهافت حكمتهم - على الأقل في إشكال الجوهر المتعدد - إذ ليس من المنطق في شيء أن يتصور عاقل بتعدد صور الجوهر، لأن الروية الناظرة بالبصيرة تبحث عن جوهر واحد، إليه تفتقر سائر الجواهر والأعراض.

- نستنتج في الأخير أن شيوع الكلام عن الجواهر المادية عند أغلب الحكماء السبعة، ولاسيما الأوائل منهم، أفضى إلى ميلاد فكرة قدم العالم التي قال بها أغلب الفلاسفة الغربيين المتقدمين منهم والمتأخرين، وهي الفكرة التي أجمعت الصّراع بين الأديان السماوية والفلسفات الأرضية، وقد تكفّل علم الكلام الإسلامي منذ قرون خلت بالتصدي لهذه الفكرة الغربية، والتي تعود بذور نشأتها الأولى إلى حكمة الحكماء السبعة في التأسيس للجوهر المادي للكون.

4- قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، ط1، القاهرة، 2004، ص 662.
- 2 - أرسطوطاليس: النص الكامل لمنطق أرسطو، تحقيق: فريد جبر، مراجعة: جيزار جيهامي ورفيق العجم، دار الفكر اللبناني، ط1، بيروت، 1999.
- 3 - أفلاطون: محاوره بارمينيدس: ترجمة: حبيب الشاروني، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2002.
- 4 - أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، ط2، بيروت/ باريس.
- 5 - برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الفلسفة القديمة، ترجمة: زكي نجيب محمود، مراجعة: أحمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010.
- 6 - جعفر آل ياسين: فلاسفة يونانيون، العصر الأول، مطبعة الإرشاد، ط1، بغداد، 1971.

- 7 - جورج رديوش: سقراط، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة: حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2014.
- 8 - جيرار جيهامي: موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 1998.
- 9 - شمس الدين الشهرزوري: تاريخ الحكماء قبل الإسلام وبعده، تحقيق: عبد الكريم أبو شويرب، دار بيبليون، باريس، 2007.
- 10 - الشهرستاني أبو الفتح: الملل والنحل، ضبط وتعليق: كسرى صالح العلي، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، بيروت.
- 11 - عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، ط3، القاهرة، 2000.
- 12 - عزت قرني: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، طبع جامعة الكويت، 1993.
- 13 - علي سامي النشار وآخرون: ديمقريطس فيلسوف الذرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، الاسكندرية.
- 14 - علي سامي النشار ومحمد علي أبو ريان وعبد الراجحي: هيراقليطس فيلسوف التغيير، دار المعارف، ط1، مصر، 1969.
- 15 - الغزالي أبو حامد: تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، ط1، دت، مصر.
- 16 - القفطي جمال الدين: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تعليق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2005.
- 17 - محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي اليوناني، الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، ط2، الإسكندرية، 2014.
- 18 - وولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية: ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 2005.